...«تبسَّمْتُ منْ عدوّ اللهِ إبْليس!!...

ونبقىٰ مع الرسول ﷺ ومن معه في حجة الوداع ، حيث وصل وفد الحجيج إلىٰ عرفات الله، وهناك جمع رسول الله ﷺ بين صلاتي الظهر والعصر، وأمرهم أن يقفوا في المكان المحدّد علىٰ عرفات للوقوف: «كونوا علىٰ مشاعركم فإنكم علىٰ إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم عليه السلام»[1].

وكان صلوات الله عليه يوم عرفة مُفطراً ، وأمضىٰ غالبية وقته وهو يدعو الله سبحانه ، من ذلك ما رواه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أكثر ما دعا به رسول الله ﷺ عشيّة عرفة في الموقف: «اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول ، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآبي ، ولك ربّ تراثي ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصّدر ، وشتات الأمر ، اللهم إني أعوذ بك من شرّ ما يجيءُ به الريح»[2].

ومن ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان فيما دعا به رسول الله ﷺ في حجّة الوداع: «اللهم إنك تسمع كلامي ، وتعلم مكاني ، وتعلم سرّي وعلانيتي ، ولا يخفىٰ عليك شيءٌ من أمري ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير المشفق المقرّ المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، مَنْ خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه، وذلّ جسده ، ورَغِم لكَ أنفه ، اللهم

---

(١) سنن النسائي: ٥/ ٢٥٥.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٥٣٧.

لا تجعلني بدعائك شقياً، وكُن بي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين»[1].

أجل يا رسول الرحمة!

لقد علّمت الأجيال كيف يقف الواحد منهم علىٰ عرفة ، وكيف ينسىٰ هناك نفسه وماله وأهله والناس أجمعين ، ليعيش تلك الأيام الجميلة مع الله سبحانه ، وأدخلت يا سيدي يا رسول الله الأمل إلىٰ قلوب العصاة والمنحرفين!!

عن عباس بن مرداس أن رسول الله ﷺ دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة ، فأكثر الدعاء ، فأجابه ربه عز وجل أن قد فعلتُ وغفرتُ لأمتك إلاّ من ظلم بعضهم بعضاً.

فقال: «يا رب، إنك قادرٌ علىٰ أن تغفر للظالم وتُثيب المظلوم خيراً من مظلمته» فلم يكن في تلك العشية إلاذا ، فلما كان من الغد دعا غداة المزدلفة ، فعاد يدعو لأمته ، فلم يلبث النبي صلوات الله عليه أن تبسّم ، ثم أخبرهم عن سبب تبسّمه فقال: «تبسّمتُ من عدوّ الله إبليس حين علم أن الله عز وجل قد استجاب لي في أمتي وغفر للظالم ، أهْوَىٰ يدعو بالثبور والويل ويحثو التراب علىٰ رأسه ، فتبسّمت مما يصنع جزعُه»[2].

* * *

(١) مجمع الزوائد: ٣/ ٢٥٢.

(٢) مسند أحمد: ٤/ ١٤.